



عضو أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا بالقاهرة

## كتاب

( حسن التوصل إلى صناعة التوصل )

لشهاب الدين محمود العلي

دراسة تحليلية

By

Dr. Wafa' Said Shahwan

Lecturer

Al-balqa' Applied University

Amman University College

Amman

Jordan

E-mail: ([yousef40@hotmail.com](mailto:yousef40@hotmail.com))

٢٠١٠

**Abstract**

*The traditions are the nerve of past, which is long life run. Traditions are the legacy of lively life, so the traditional past can't be dead, so we have to be fair to revive it . To the best of the author's knowledge shows the book of "Shehab Al-din Mahmoud Al- halabi "(good begging makes good messaging) has got the stray wisdom.*

*The author studies the book as a vital legacy rather than investigated study, the researcher goes through the material and contents of the book, the researcher points the significant of the book as a rich collective reliable reference. Though the book and his author wasn't fully recommended on their time, it still goes hand in hand along with the other dychronic and synchronic production.*

## الملخص

إن التراث امتداد الماضي في النفوس والعقول والعادات، والحياة دوام لا يقبل الانقطاع ولا البتر، والتراث ميراث وفيه حياة، فأية عملية لإحياء التراث ليست في الحقيقة إحياء لما هو (ميت) ولكنها تصحيح لطبيعة الارتباط وتقرب من التراث بشكله الصحيح وينابيعه الصافية، وتقويم لمعناه ومفهوماته وإنعاش لتذوقه واستيعابه.... وفرصة كبيرة لإتصافه، فكان من أجمل الموروثات كتاب (حسن التوسل إلى صناعة الترسّل) لشهاب الدين محمود الحلبي، الحكمة الضالّة وجدتها فالتقطتها وكنت أحق بها، فدرسته بتقديم ترجمة دقيقة عن كاتبه وظروف تأليفه للكتاب، وبينت إن كان تراثياً مخطوطاً أم محققاً مدروساً، وعرضت مادته من حيث المحتوى والتقسيم، وبينت مصادره ومدى أثره في ما ألف بعده، ووضحت أسلوب عرضه للكتاب ولغته، وخلصت إلى تقييم الكتاب بتبيان أهميته وأثره في المجال المعرفي الخاص به.

ومع أن الكتاب ومؤلفه لم يحظيا بالرعاية والاهتمام من صيت ودرس في حدود علم الباحث، إلا أنهما لا يقلان عن سواهما تصويراً لعصرهما، ولا جدارة بالكتابة الفنية والقراءة التاريخية.

وهكذا، فإن دراسته حق، وما هي إلا وقفة إنصاف لأحد كتب التراث أحسبها من النسيان العلمي أو الظلم التاريخي الذي حلّ بتلك الحقبة، فلعلها تبعث البريق والأمل في مدّة زمنية لو تفقدنا وأمعنا النظر فيها لوجدناها من أهم العصور وأميزها.

## المقدمة

لا تزال دراسة الأدب المملوكي أقل كثيراً مما نأمل إذا نظرنا إلى ما تقدم من دراسات حول العصور الأدبية الأخرى، ومنذ زمن طويل حظيت بالاهتمام في العصرين الأيوبي والمملوكي، ودرست ما قيض الله لي من ذنك العصرين، والفضل في هذا الاهتمام يرجع إلى أستاذي الدكتور محمود إبراهيم، رحمه الله، الذي أحالني في المرة الأولى إلى دراسة ( بهاء الدين ابن شداد المؤرخ الأديب ) . وكان عنوان رسالتي للحصول على درجة الماجستير، وللدكتور يوسف بكّار الذي أحالني في المرة الثانية إلى دراسة ( ضياء الدين ابن الأثير وشعراء المعارك النقدية أبو تمام والبحثري والمتنبي ) وكان عنوان أطروحة الدكتوراه .

وكنت في أثناء سنوات الدراسة أعاني من قلة المصادر والمراجع والدراسات الحديثة ذات العلاقة بتلك الفترة ، هذا غير ما قرأته عن تهم كثيرة لصقت بذك العصرين . لذا فإن موضوع دراسة وعرض كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل، لشهاب الدين الحلبي اخترته لرفع بعض الضيم الذي لحق حقبة هؤلاء الأدباء العلماء التي اتهمت بالانحطاط ووصفت بالجمود، وهي غير ذلك .

كذلك ليس حقيقياً ولا قابلاً للتطبيق ولا منطقياً دراسة جلّ العصور الأدبية السابقة للعصرين ، واعتبارهما عصرين غير قابلين للنقاش، فكان عليّ أن أختار من كنوز أحد العصرين بعد التقييش والبحث في تراثهما العربي أياً من النتاج الأدبي، فكان كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل،

وهو كتاب نادر التملك ولعل ندرة الكتاب وقلة المعرفة بمؤلفه، نتاج من نتاجات قلة الاهتمام بالعصر نفسه، في الوقت الذي كانا حافزين أوليين لي للاهتمام بدراستهما.

فبعد أن حصلت عليه جاهدة، درستته بتقديم ترجمة دقيقة عن كاتبه وظروف تأليفه للكتاب، وبينت إن كان تراثياً مخطوطاً أم محققاً مدروساً، وعرضت لمادته من حيث المحتوى والتقسيم، وبينت مصادره ومدى أثره في ما ألف بعده، ووضحت أسلوب عرضه للكتاب ولغته، وخلصت إلى تقييم الكتاب بتبيان أهميته وأثره في المجال المعرفي الخاص به.

وتبين من خلال ذلك أن الكتاب مع قلة صيته ودرسه، إلا أنه لا يقل عن غيره تصويراً لعصره ولا جدارة بالكتابة الفنية والقراءة التاريخية. لقد تميّز الكتاب بعلم متنوع في البلاغة والنقد والتاريخ والأدب والشعر وضم كثيراً من المعلومات، والحكايات، والأمثال، والأخبار، وأسماء الأشخاص، والأماكن، والأيام، واستشهد بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، والأشعار، والأقوال المأثورة، والحوارات والخطابات السياسية، والرسائل والتواقيع والكتب الإخوانية. لقد تمتع الكتاب بظواهر مغرية، من أهمها: حسن التقاط الشواهد، وتقديم واقع سياسي وتاريخي للعصر المملوكي، وتحديد ثقافة العصر بعبادته وتقاليده، وتبسيط أصول وقواعد الكتابة حتى جاءت جامعة بين النظرية والتطبيق.

وستحاول هذه الدراسة استقراء الكتاب، متبعة منهج الكاتب نفسه، لتبين الأمور التالية:-

١- تقديم تفصيلي لمحتوى الكتاب والتأكيد على أنه كتاب علم وثقافة شاملة.

- ٢- قياس مكانة الكتاب في عصره، وتوضيح علاقته بمحيطه الثقافي والسياسي والاجتماعي ومدى تأثره به أو تأثيره فيه. وما قد يكون من تولّد آثار ذلك في الأجيال اللاحقة.
- ٣- نفي اتهام الكتاب بالجفاف والضعف ؛ لاعتماده البديع أساسا في لغته الإنشائية كما الحال عند مزامنيه

٤- خلق روح جديدة لتشجيع دراسة النثر الفني عامة والنثر في عصوره المتقدمة خاصة، كدراسة رسائل شهاب الدين الحلبي والتي كانت نموذجا حيا للواقع المعيش، وغيرها.

وكان قد حقق الكتاب أكرم عثمان يوسف ، فقدم دراسة عنه إلا أن هناك آراء خاصة بالكاتب والكتاب اختلف فيها معه كما الحال حين وصف المحقق رسائل شهاب الدين بأنها : تتسم أكثرها بخلو من الجمال والفنية في رأينا المعاصر ، فكل الذي تحويه هو التعقيد حتى إننا نشعر أن التعقيد غاية سعى إليها شهاب الدين طبقها في رسائله، وغير ذلك مما سيظهر في البحث .

وما يزال في النفس سؤال، متى يشرق العصر المملوكي لنجد إشعاعه فناً ومكانة ؟

## " حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل "للحلي

### أولاً: حياة المؤلف

١- اسمه : شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد بن محمود

الحليّ الدمشقيّ (أبو الثناء )

ولد في مدينة حلب سنة أربع وأربعين وستمائة، ونسب إليها<sup>١</sup>  
 شيوخه وتلاميذه : تلقى شهاب الدين محمود العلم على نفر من أئمة عصره،  
 فقد سمع الحديث عن الرضى بن برهان (ت ٦٦٤ هـ ) وقد كان عالماً  
 بالحديث، سمع منه خلق بدمشق ومصر والشعر واليمن<sup>٢</sup> ،  
 وابن عبد الدائم (ت ٦٦٨ هـ ) لنفسه وكان فاضلاً متنبهاً حسن الخلق والخلق،  
 متواضعاً ديناً حدّث بالكثير بضعا وخمسين سنة، وانتهى إليه علو الأستاذ<sup>٣</sup> .  
 ويحيى بن مالك (ت ٦٧٢ هـ )<sup>٤</sup> .

واشتغل بالفقه على يد الشيخ شمس الدين بن أبي عمر (ت ٦٨٢ هـ ) شيخ  
 الحنابلة بل شيخ الإسلام وفقه الشام وقوة العباد . درس وأفتى وأقرأ العلم

(١) - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلّي، بيروت، دار أحياء التراث العربي، ٦٩:٦.

- ذيل طبقات الحنابلة، أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغداديّ الدمشقيّ، القاهرة، مطبعة السنة  
 المحمدية، ٣١٩٥، ٢: ٣٧٨.

- البداية والنهاية، عماد الدين إسماعيل بن عمر القرشيّ الدمشقيّ، أبو الغداء، مصر، مطبعة السعادة ١٢: ١٤.

- فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبيّ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة  
 ١٩٥١م، ٢: ٥٦٤: ٥٧٦.

- الأدب في العصر المملوكي، محمد زغلول سلام، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٤م، ص ٧٦: ٨٦.

- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، بيروت دار العلم للملايين، ١٩٨١م، ٣: ٧٤٠: ٧٤٠.

- حلب في العصر المملوكي الأول ٦٥٨ هـ - ٧٨٣ هـ، جورج فريد طريف الداود، عمان، مطبعة  
 السفير، ٢٠٠٨م، ص ٢٣٦.

(٢) شذرات الذهب، ٥: ٣١٥.

(٣) نفسه، ٥: ٣٢٦ (كان يكتب خطأ حسناً فكتب ما لا يوصف كثرة، وكتب تاريخ دمشق لابن عساكر.

(٤) نفسه، ٥: ٣٤٠.

زماناً طويلاً، وانتفع به الناس، وانتهت إليه رئاسة المذهب في عصره بل رئاسة العلم في زمانه، هو من أجل الشيوخ وأول ما ولي مشيخة دار الحديث سنة خمس وستين وستمائة<sup>١</sup>.

وأخذ النحو عن جمال الدين بن مالك (ت ٦٧٢هـ) الذي صرف همه إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية وحاز قصب السبق وأربى على المتقدمين، وكان إماماً في القراءات وعلها. وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها، وأما النحو والتصريف فكان بحراً لا يجاري وحبراً لا يبارى، وأما أشعار العرب التي يستشهد بها في اللغة والنحو فكان الأئمة الأعلام يتحIRON منه ويتعجبون من أين يأتي بها<sup>٢</sup>، وتلقى الأدب على مجد الدين بن الظهير (ت ٦٧٧هـ) الأديب الفاضل، له ديوان مشهور ونظم رائع مع الجلالة والديانة التامة<sup>٣</sup>.

لقد كان لهذه البيئة التعليمية الثقافية ولهؤلاء العلماء الشيوخ وغيرهم بالغ الأثر في توجيه شهاب الدين أدباً، ولغةً، وكتابةً، ونظماً، وعلماً؛ إذ قرأ وتعلم وتثقف واجتهد وكتب وثابر حتى برع، وخدم بالإنشاء نحواً من خمسين سنة، فكان يكتب التقاليد على البداهة، وتعلم الخط المنسوب أيضاً ونسخ بالأجرة، وفتح له في النظم والنثر ثم ترقّت حاله واحتيج إليه وطُلب كاتباً إلى الديار المصرية ثم الشامية، واشتهر اسمه وفاق أقرانه في النظم والإنشاء والكتابة، وبعُد صيته وصار المشار إليه في هذا الشأن<sup>٤</sup>.

(١) نفسه، ٣٧٧:٥ (كان معظماً عند الخاص والعام عظيم الهبة لدى الملوك وغيرهم كثير الفضائل والمحاسن متين الديانة والورع، اجتمعت الألسن على مدحه والثناء عليه، حدث نحواً من ستين سنة)

(٢) شذرات الذهب، ٣٣٩:٥

(٣) نفسه، ٣٥٩:٥

(٤) نفسه، ٦٩:٦



ورغمًا عن مكانته التي تقلدها بعلمه وإبداعه في مجال الإنشاء والكتابة بأنواعها فإنه لم يكن له عددٌ من التلاميذ في ما ذكرته المصادر التي قمشتها، سوى ما قال عنه الصفدي: هو أحد الكملة الذين عاصرتهم وأخذت عنهم<sup>١</sup> وكرر ذلك محمد زغلول سلام في معرض حديثه عن صلاح الدين الصفدي خليل بن أبيك فقال: وطلب الصفدي الحديث، ولكنه انصرف إلى الشعر والأدب وكان من شيوخه فيهما شهاب الدين محمود.<sup>٢</sup>

كما يؤكد هذا محقق كتابه (حسن التوسل إلى صناعة التوسل) أكرم عثمان يوسف؛ إذ يقول: أما من أخذ عنه فلم أعثر على إشارة أو دليل يشير إلى أنه كان صاحب مدرسة، إلا أسرته التي أخذت عنه وحدث حذوه وتميزت عن الأسر الأخرى بالكتابة وتولي وظائفها<sup>٣</sup>. وعليه، فليس له تلاميذ ينتمون إليه على مبدأ الشيخ والطريقة سوى أبنائه وأحفاده<sup>٤</sup>.

## ٢- أخلاقه ووظائفه:

(١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق محمد سيد جاد الحق، مصر، دار الكتب المصرية الحديثة، ٩٢:٥.

(٢) الأدب في العصر المملوكي، ص ٨٧.

(٣) حسن التوسل إلى صناعة التوسل، شهاب الدين محمود الحلبي، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، الجمهورية العراقية، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠م، ص ٢٢.

(٤) أبنائه - محمد بن محمود سليمان بن فهد الحلبي، كتب معه أبيه وتولى كتابة السرّ بدمشق، ت ٧٢٧هـ - انظر، الدرر، ١٩:٥.

- إبراهيم بن محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، عمل في كتابة السرّ بدمشق وفي ديوان الإنشاء بمصر، ت ٧٦٠هـ - انظر الدرر، ٧٤، ٧٣:١.

- من أحفاده - أبو بكر محمد بن محمود بن محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، عمل في ديوان الإنشاء بدمشق والقاهرة، ت ٧٤٤هـ - انظر: الدرر ١: ٩٨، ٩٦.

- محمد بن إبراهيم بن محمود بن سليمان بن فهد الحلبي، كتب بالإنشاء بطلب والقاهرة، ت ٧٦٩هـ - انظر: الدرر، ١٠٧:٥.

قال ابن كثير عنه هو شيخ صناعة الإنشاء الذي لم يكن بعد القاضي الفاضل مثله في صناعة الإنشاء<sup>١</sup>، دون الفضلاء نظمه، ونثره ويقال : له من الخصائص ما ليس للفاضل من كثرة القصائد المطولة الحسنة الأنيقة، كما ديناً خيراً متعبداً مؤثراً للانقطاع والسكون حسن المحاورة كثير الفضائل<sup>٢</sup> .

وقال عنه الصفدي : هو أحد الكملة الذين عاصرتهم وأخذت عنهم، ولم أرَ من يصدق عليه اسم الكاتب غيره؛ لأنه كان ناظماً ناثراً عارفاً بأيام الناس وتراجمهم ومعرفة خطوط الكتاب مع الأدب الكثير والديانة والعلم والدراية<sup>٣</sup> .

عاش شهاب الدين في العصر المملوكي، وتأتي مدينة حلب التي ينتسب إليها بالنسبة للدولة المملوكية في الدرجة الثانية بعد القاهرة<sup>٤</sup>، وقد اتسم علماؤها بالسيرة الحميدة والثقافة الواسعة المتنوعة وبالدين والورع .

ظهرت مواهب شهاب الدين الحلبي في الكتابة والإنشاء، وذاع صيته فعين في ديوان الإنشاء بدمشق كاتباً فأثبت مقدرة وإبداعاً، ثم نُقل إلى ديوان الإنشاء في مصر بعد موت جده لأمه محي الدين عبد الظاهر<sup>٥</sup> حيث عمل فيه أكثر من عشرين سنة وبقي في ديوان الإنشاء نحواً من خمسين سنة بدمشق ومصر وولي كتابة السرّ بدمشق نحواً من ثماني سنين قبل موته .

وقيل عنه إنه كان يكتب التقاليد الكبار والتواقيع بديهة من غير مسودة<sup>٥</sup> .

(١) البداية والنهاية، ١٤٠:١٤.

(٢) ثمرات الذهب في أخبار من ذهب، ٧٠:٦ .

(٣) الدرر الكامنة، ٩٢:٥.

(٤) حلب في العصر المملوكي الأول ٦٥٨هـ : ٧٨٣هـ، ص ٢٣٦.

\* توفي محي الدين بن عبد الظاهر ٦٩٢هـ، كان حينها رئيساً لديوان الإنشاء في مصر، وفي سنة ٧٠٨هـ أصبح شهاب الدين صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان بيبرس البندقداري .

(٥) ثمرات الذهب في أخبار من ذهب، ٦٩:٦.

## ٣- مؤلفاته:

له تصانيف في الإنشاء وغيره، ودون الفضلاء نظمه ونثره<sup>١</sup>، منها:

- ١- حسن التوسل إلى صناعة الترسل. حققه، أكرم عثمان يوسف / انظر رسائله في قسم الأخير من الكتاب<sup>٢</sup>.
- ٢- مقاومة العشاق<sup>٣</sup>.
- ٣- منازل الأحباب ومنازة الألباب<sup>٤</sup>.
- ٤- أسنى المنائح في أسنى المدائح<sup>٥</sup>.
- ٥- الذيل على ذيل القطب اليونيني<sup>٦</sup> / في التاريخ.
- ٦- الذيل على الكامل لابن الأثير<sup>٧</sup>.

لقد ترك شهاب الدين تراثاً فنياً يستحق الدراسة، فـ "لم أر من يصدق عليه اسم الكاتب غيره لأنه كان ناظماً ناثراً عارفاً بأيام الناس

(١) نفسه، ٦: ٦٩.

(٢) - حسن التوسل إلى صناعة الترسل، خصائص الكتابة ورسائل شهاب الدين محمود الحلبي، ص ٣٩٣: ٣٢١ النسخة المحققة.

(٣) - فوات الوفيات، ٢: ٥٦٥.

- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٣م، ٣: ٨٠٩.

- تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ٣: ٧٣٦.

(٤) - مقدمة المحقق، ص ٢٤.

- معجم المؤلفين، ص ٨٠٩.

- فوات الوفيات، ٢: ٣٥٨.

(٥) - (الأدب في العصر المملوكي، ص ٨٥) (لكن سلام سماء) أسنى المنائح في أهني المدائح " (

- حلب في العصر المملوكي الأول، ص ٢٣٦) (لكن جورج سماء) أهنا المنائح بأسنى المدائح

- معجم المؤلفين، ص ٨٠٩ ( جاء اسمه " أهني المنائح في أسنى المدائح")

(٦) - الدرر الكامنة، ٥: ٩٤.

- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، مقدمة المحقق، ص ٢٤.

- اليونيني، ت ٧٢٦ هـ صاحب ذيل مرآة الزمان.

(٧) معجم المؤلفين، ص ٨٠٩.

وتراجمهم ومعرفة خطوط الكتاب مع الأدب الكثير والديانة والعلم والرواية" <sup>١</sup>.

## ٤- وفاته:

توفي بدمشق ليلة السبت ثاني عشرة شعبان، ودفن بترتبته التي أنشأها بالقرب من اليعمورية، سنة خمس وعشرين وسبع مائة للهجرة

<sup>٢</sup>.

### ثانياً : ظروف تأليف الكتاب

أبان الحلبي في مقدمة الكتاب سبب تأليفه، فقال : فإنه لما جعل الله لي في كتابة الإنشاء رزقاً باشرت بسببه من وظائفها ما باشرت، وعاشرت من أجله أكابر أهلها وأئمتها من عاشرت، ورأيت من مذاهبهم في أساليبها ما رأيت، ورويت عنها من قواعدها بالمجاورة والمحاورة ما رويت، واطلعت فيها بكثرة المباشرة على طرائق، وألجئت فيها باختلاف الوقائع إلى مضائق، ونشأ لي دون التحلي بمعناها فأجبت أن أصنع لهم، ولمن يرغب في ذلك في هذه الأوراق من فصولها قواعد، وأقيم لهم فيها على ما لا يسع الجهل به من أصولها وفروعها شواهد؛ ليأتوا هذه الصناعة من أبوابها، ويعلموا من طرقها ما هو الأخص بأوضاعها والأولى بها . وسميته " حسن التوسل إلى صناعة التوسل " <sup>٣</sup>.

(١) الدرر الكامنة، ٩٢:٥

(٢) شذرات الذهب، ٦، ٧٠ وانظر ما من مصادر .

(٣) الكتاب، ص ٧٢

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) .

وعليه، فإن كتابة الإنشاء سبيل عيشه وسبب في كسب رزقه، وقد تمهّر فيها كثيراً فرغب في وضع قواعد الكتابة وأصولها وأثبت ما جاء فيها من الأبواب والفصول لشواهد متنوعة، فكان الكتاب الذي سمّاه سابقاً.

وفي تبیان سبب التألیف شرح واسع لمحتواه، وشهادة على سعة اطلاع صاحبه وتمكنه من فنون علم الكتابة، ولعل ما تقدم قطرة وهي أول الغيث .

### ثالثاً: التحقيق

لعل من حسن حظ الكتاب أن قيض الله له الباحث / أكرم عثمان يوسف ليحققه ويدرسه، وقد بيّن في مقدمة الكتاب أنه عازم على المشاركة بغيره من الأفاضل في البحث في التراث العربي للتدليل على ما للأمة العربية من أصالة في العلم والمعرفة والحضارة الإنسانية.

وأنه مؤمن بأهمية النثر الفني على مختلف فروعه في حياة الأمة ووقت انتفاضاتها وثوراتها وحروبها وفي وقت سلمها وعمرانها.

(فكان عليّ أن أختار من كنوز تراثنا العربي كتاباً، أبعث فيه الحياة عن طريق تحقيقه العلمي ونشره، فاستوقفني كتاب حسن التوصل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود الحلبي المتوفى سنة ٧٢٥ هـ) <sup>١</sup>.

ثم بين المحقق منهجه بأن جمع النسخ الخطية التي تثبت في كتب الاختصاص وبين أنه عثر على نسختين قديمتين لم تذكر عند بروكلمان وزيدان، وهما نسختا بغداد وتركيا في مكتبة قايتباي، واعتمد المحقق نسخة

(١) مقدمة الكتاب، ص ٥

كوبرلي الأم وقابل بين النسخ، ثم ثبت اختلاف القراءات في الهوامش وخرج الأحاديث الشريفة والشعر والنصوص وأخلاقه ومؤلفاته، ثم قدّم دراسة للكتاب من حيث تقسيم ومنهج مؤلفيه ؛ إذ انصب الاهتمام الأكبر من أكرم عثمان يوسف على التحقيق ( وقد بذلت جهداً كبيراً في سبيل أن أخرج الكتاب بأسلوب علمي متوخياً إفادة القارئ )<sup>١</sup> ، وبذلك الجهد جعل المحقق الكتاب موسوعة .

## رابعاً: عرض مادة الكتاب من حيث المحتوى والتقسيم

جاء الكتاب في ثلاثمائة وثلاث وعشرين صفحة باستثناء صفحاته الأولى الخاصة بالمحقق ومصورات المخطوط. وبينّ يوسف في أثناء عرضه للكتاب ومنهجه في تحقيقه أنه مقسم ثلاثة أقسام، وقال: ألف شهاب الدين كتابه "حسن التوسل إلى صناعة الترسّل" ، وقد قسمه ثلاثة أقسام: القسم الأول : يشمل السبب الذي دفعه إلى تأليف كتابه هذا ، والوسائل التي تعد المترشح للكتابة. القسم الثاني: يضم علوم البلاغة: البيان، والمعاني، والبديع. القسم الثالث: يشمل الحل والاقتباس والاستشهاد ورسائل المؤلف<sup>٢</sup>

(١) مقدمة الكتاب ، ص ٥٣

(٢) مقدمة الكتاب، ص ٢٥

لعل هذا التقسيم الذي توصل إليه اليوسف واعتمده في دراسة الكتاب ... اجتهداً منه؛ إذ لم يبين شهاب الدين ذلك أو يشير إليه، علاوة على أن الكتاب نفسه لا يضم هذا التقسيم أو يدل عليه.

يقول شهاب الدين في مقدمته بعد سبب التأليف وتبيان اسم الكاتب: فأول ما يبدأ به ذلك - ويقصد المترشح للكتابة - ، حفظ كتاب الله تعالى .....<sup>١</sup>

وبعد أن خلص من تعداد الوسائل المهمة للكتاب، قال : فهذه أمور كلية لا بد للمترشح لهذه الصناعة من التصدي للاطلاع عليها والانكباب على مطالعتها والاستكثار منها<sup>٢</sup> من غير أن يشير إلى ما تقدم بأنه القسم الأول في الكتاب . ثم يعرض بعد ذلك للأمور الخاصة - من غير أي دلالة على أنها القسم الثاني في الكتاب فيقول: وأما الأمور الخاصة التي تزيد معرفتها قدره، ويزين العلم بها نظمه ونثره فإنها من المكملات لهذا الفن ..<sup>٣</sup>

وينهي الكاتب من غير أية إشارة إلى أن صفحاته الأخيرة القليلة هي القسم الثالث فيه، بقوله: وأما ما يتصل بذلك من خصائص الكتابة، فالإقتباس والاستشهاد والحل، على أن منهم من يجعل الاقتباس في النظم أيضاً.<sup>٤</sup>

إن المضمون الخاص بالوسائل التي تُعدّ المترشح للكتابة، وقد عدّه المحقق هو القسم الأول في الكتاب، جاء في تسع وعشرين صفحة فقط، عرض فيها المؤلف للأمور الكلية التي لا بد للمترشح لهذه الصناعة من التصدي للاطلاع عليها والانكباب على مطالعتها والاستكثار منها، وهي :  
١- حفظ كتاب الله تعالى وإدامة قراءته وملازمة درسه، وتدبر معانيه<sup>١</sup>.

(١) حسن التوسل، ص ٣٧

(٢) نفسه، ص ١٠٠

(٣) نفسه، ص ١٠٠

(٤) نفسه، ص ٣٢٣

- ٢- حفظ الأحاديث النبوية، صلوات الله على قائلها وسلامه- خصوصاً في السير والمغازي والأحكام، والنظر في معانيها وغريبها، وفصاحتها، وفقهه لا بد من معرفته من أحكامها <sup>٢</sup>.
- ٣- قراءة ما يتفق من كتب النحو التي يحصل لها المقصود من معرفة العربية، بحيث يجمع بين طرفين الكتاب الذي يقرأه، ويستكمل استشرابه، ويكب على الإعراب ويلزمه <sup>٣</sup>.
- ٤- ضرورة قراءة ما يتهياً من مختصرات اللغة كالفصيح وكفاية المتحفظ، وغير ذلك من كتب الألفاظ. <sup>٤</sup>
- ٥- حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم (ومخاطباتهم)، ومحاوراتهم ومكاتباتهم <sup>٥</sup>.
- ٦- النظر في أيام العرب، ووقائعهم وحروبهم وتسمية الأيام التي كانت بينهم، ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى، وما جرى بينهم في ذلك من الأشعار والمناقضات <sup>٦</sup>.
- ٧- النظر في التواريخ، ومعرفة أخبار الدول. <sup>٧</sup>
- ٨- حفظ أشعار العرب ومطالعة شروحها، واستكشاف غوامضها، والتوفر على ما اختاره العلماء بها منها (الحماسة)، و(المفضليات) و(الأصمعيات) و(ديوان الهذليين) وما أشبه ذلك من المواد <sup>٨</sup>.

(١) نفسه، ص ٧٢

(٢) نفسه، ص ٧٨

(٣) نفسه، ص ٨٠

(٤) نفسه، ص ٨١

(٥) نفسه، ص ٨١

(٦) نفسه، ص ٨٧

(٧) نفسه، ص ٨٨

(٨) نفسه، ص ٨٩



- ٩- حفظ جانب جيد من شعر المحدثين كأبي تمام ومسلم بن الوليد والبحترى وابن الرومي والمتنبي <sup>١</sup>.
- ١٠- الاطلاع على أصول اللغة وشواهدا <sup>٢</sup>.
- ١١- النظر في رسائل المتقدمين من غير حفظها <sup>٣</sup>.
- ١٢- النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نظماً ونثراً كأمثال " الميداني " و" المفضل بن سلمه الضبي " وحمزة الأصبهاني وغيرهم <sup>٤</sup>.
- ١٣- والنظر في أمثال المحدثين الواردة في أشعارهم كأبي العتاهية، وأبي تمام، والمتنبي وأمثال المولدين، والأمثال الموضوعة على ألسن الحيوان عن العرب وغيرهم <sup>٥</sup>.
- ١٤- وأخيراً، النظر في الأحكام السلطانية <sup>٦</sup>.
- وأكد في نهاية تلك الوسائل أن على الكاتب ينفق من تلك المواد، وليسلك في الوصول إلى صناعته تلك الجواد، وإلا فليعلم أنه في واد والكتابة في واد <sup>٧</sup>.
- ويأتي شهاب الدين للأمر الخاصة التي تزيد من قدرة الكاتب وتزين نظمها وشعره لعلمه بها، وهي علوم البلاغة: البيان، والمعاني، والبديع، ويصفها في مئتين وعشرين صفحة، عرض فيها المائة نوع وزيادة من أنواع البلاغة مع شرحها وشواهدا.

(١) نفسه، ص ٨٩

(٢) نفسه، ص ٩٣

(٣) نفسه، ص ٩٣

(٤) نفسه، ص ٩٦

(٥) نفسه، ص ٩٦

(٦) نفسه، ص ١٠٠

(٧) نفسه، ص ١٠٠

وجاء في أثناء ذلك بآيات كريمة<sup>١</sup>، وأحاديث شريفة<sup>٢</sup>، وأشعار متنوعة<sup>٣</sup>، وأسماء أماكن وأيام وتواريخ ومناسبات<sup>٤</sup>، وأسماء أنبياء ورسل وصحابه وعلماء وشعراء وأدباء وبلغاء ونقاد وخطباء وخلفاء وأمراء ووزراء ومؤرخين ومن عام الناس<sup>٥</sup>، وغيرهم<sup>٥</sup>؛ إذ بلغ عددهم مئتين وعشرة، وقد تزايد.

وعرض أيضا لأسماء كتب في البلاغة والنقد والأدب والشعر والفقه والحديث وغيرها من العلوم<sup>٦</sup>، وجاء بتراجم لبعض الشخصيات<sup>٧</sup>، ومعلومات<sup>٨</sup>، وحكايات<sup>٩</sup>، وأمثال<sup>١٠</sup>، ورسائل<sup>١١</sup>، ومصطلحات وآراء نقدية خاصة به<sup>١٢</sup>.

وعليه، فإن ما تقدم قد يكون هو الكتاب، أو المقصود من تأليفه، وهذا ما أكدّه المحقق نفسه حين قال: وهكذا فقد ثبت في كتابه هذا الأسس، ووضع القواعد التي تشكّل وظيفة الكتابة في ديوان الإنشاء<sup>١٣</sup>.

(<sup>١</sup>) نفسه، ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٨، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٦، ١٢٦، ١٢٧، ١٣١، ١٣٦، ١٣٧، ١٤١، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٤، وغير ذلك.

(٢) نفسه ، ص ١١٦ ، ١٢٩ ، ١٨٦ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٩٠ ، وغير ذلك .

(٢) نفسه، ص ١٠١، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٩، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٢، ١٥٧، وغير ذلك .

(٤) نفسه ، ص ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٣٠٣ ، ٣١١ ، وغير ذلك .

(٥) انظر حسن التوسل كاملاً .

(٦) حسن التوسل، ص ٨٦، ٨٩، ٩٦، ١٠١، ٢٢٧، وغير ذلك.

(٧) نفسه، ص ٨٩، ٣١١ ن وغير ذلك .

(٨) نفسه، ص ١٣١ ن ١٤٢، ١٧٩، ١٩٨، ٢٢٧، ٢٤٠، ٢٥٦، ٢٥٩، وغير ذلك.

(٩) نفسه، ص ٨٧، ٩٠، ٩٨، ٩٩، وغير ذلك.

(١) نفسه ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١٤٣ ، وغير ذلك .

(١١) عرض لمقاطع من رسائل وكانت تابعة للأمور الكلية، انظر ص ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(١٢) حسن التوسل، ص ١٠٠، ١٠٢، ١٠٨، ١١٣، وغير ذلك.

(١٢) نفسه ، مقدمة المحقق ص ٢٥ .

ويتابع قوله : فقد كان في كتابه أشبه بالمعلم المرشد الذي يعلم طلابه البلاغة لكي يقوم ذوقهم ويوسع ثروتهم اللغوية ويكون عندهم ملكة الخلق والإبداع في الكتابة<sup>١</sup>.

إن ما جاء به شهاب الدين من معلومات ومعارف-حين كتب في الأمور الخاصة- لا ينزع فيه منزعاً بأنه كتاب، ويصلح أن يكون مفصلاً مستقلاً عن قسم الأول والآخر؛ لأنه يختلف عن ذينك القسمين كمّاً ونوعاً ويأتي شهاب الدين بعد ذلك بخصائص الكتابة، فالإقتباس والاستشهاد والحل في سبعين صفحة، وهو القسم الأخير في الكتاب حسب رأي أكرم عثمان يوسف .

إن هذا التقسيم الذي افترضه المحقق وبنى عليه دراسته للكتاب لم يكن في حساب شهاب الدين، وليس من إشارة دالة على ذلك في مقدمة أو متن للكتاب وهذا أمر له أثره ودلالته في تكوين رأي حول فكر شهاب الدين ومنهجه ، وعلى ما يبدو أن شهاب الدين لم يؤلف الكتاب إلا استعراضاً لتلك الفنون البلاغية التي فاقت المائة ويستعرض من خلالها ما يمتلكه من محفوظات الشعري والنثري،

شأن غيره من مؤلفي عصره ، ولم يكن له منهج محدد في بناء الكتاب . يقول زغلول سلام: أما الكتابة الفنية فقد اتجه الكتاب فيها إلى مزيد من التزييق، باستخدام البديع استخداماً مسرفاً، وتركيز الاهتمام في مصر خاصة على التورية ، وفي الشام على التجنيس<sup>٢</sup> .

ويتابع .... وألف بعض العلماء في هذا الفن أيضاً - ويقصد الاقتباس - كما ألفوا في التورية، والجناس مبينين أصوله. ومن بينهم صلاح الدين الصفدي، وشهاب الدين محمود صاحب كتاب حسن التوسل إلى صناعة

(١) نفسه، مقدمة المحقق ، ص ٢٦ .

(٢) الأدب في العصر المملوكي ، ص ٤١

الترسل<sup>١</sup> وفيه جاء بالجديد أيضاً، مثل: تجاهل العارف<sup>٢</sup> وعتاب المرء لنفسه<sup>٣</sup> والطاعة والنسيان<sup>٤</sup> والقلب<sup>٥</sup>.

وتأتي الصفحات الأخيرة لتضمّ خصائص الكتابة والاقتباس والرسائل وكتابة النقايد والتواقيع والمناسير والكتب الإخوانية وبدأها بالآتي<sup>٦</sup>:

- أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن والحديث ولا ينبّه عليه.  
- وأتى بشواهد في رسائله مختصرة جداً من حيث الاقتباس، وفي الحديث مثل بسطور.

- وأما الحل فقد شرّحه ووضّحه ومثّل عليه، وقال:  
فهو باب يتسع على المجيد مجاله ويتصرف في كلام العارف به رويته وارتياله وملاك أمر المتعدّي له أن يكون كثيراً لحفظ الأحاديث النبوية والآثار والأمثال والأشعار؛ لينفق منها وقت الاحتياج لها.

١- وكيفية الحل أن تتوخّى هدم البيت المنظوم، وحل فرائده من سلكه، ثم يرتب تلك الفرائد ما شابهها ترتيباً متمكناً لم يحصره الوزن ولا اضطرته القافية ويبرزها في أحسن سلك وأجمل قالب وأصح سبك، ويكملها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك، من غير كلفة<sup>٧</sup>.

٢- إذا تم معه المعنى المحلول في مرتبة واحدة فيعزم له من حاصل فكره ومن ذخيرة حفظه ما يناسبه، وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما

(١) نفسه، ص ٤٣

(٢) نفسه، ص ٢٣٢

(٣) نفسه، ص ٢٣٨

(٤) نفسه، ص ٢٧١

(٥) نفسه، ص ٣٠٧

(٦) حسن التوسل، ص ٣٢٣

(٧) نفسه، ص ٣٢٦

شاء . فإن كان نسبياً وتأتى له أن يجعله مديحاً فليفعل وكذلك غيره من الأنواع <sup>١</sup> .

٣- إذا أراد الحل بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنهن، فمتى قصرت ولو بلفظة واحدة فسد ذلك الحل وعُدَّ معيباً <sup>٢</sup> .

٤- وإذا حل باللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل إلا مع مراعاة نظام الفصاحة في ذلك واجتناب ما ينقص المعنى أو يحط رتبته <sup>٣</sup> . ويمثل بشواهد على ذلك .

وختمه بقوله : فهذه أمور حملية في الحل يتصرف الذهن في أنواعها بحسب قابليته واستعداده <sup>٤</sup> .

ثم يأتي لقواعد الكتابة ويبينها :

- فإذا كتب في أوقات الحروب إلى نواب الملك عنه وإلى مقدمي الجيوش والسرايا فليتوخى :

١- الإيجاز .

٢- الألفاظ البليغة الدالة على القصد .

٣- لا تطويل ولا بسط يضيع المقصد ويفصل الكلام بعضه من بعض .

٤- لا تهويل لأمر العدو وتضعف به القلوب ولا تهوين لأمره يحصل به الاعتزاز <sup>٥</sup> .

(١) نفسه ، ص ٣٢٦

(٢) نفسه ، ص ٣٢٦

(٣) نفسه ، ص ٣٢٦

(٤) نفسه ، ص ٣٣٠

(٥) نفسه ، ص ٣٣١

- وإذا كتب عن الملك في أوقات حركات العدو إلى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء عدوهم فليبسط القول في وصف العزائم وقوة الهمم وشدة الحمية للدين وكثرة العساكر والجيوش وسرعة الحركة وطبي المراحل ومعالجة العدو وتخيّل أسباب النصر والوثوق بعوائد الله في الظفر وتقوية القلوب منهم وبسط آمالهم وحثهم على التيقظ وحضهم على حفظ ما بأيديهم ومن ذلك ما أشبهه ، ويبرز ذلك في أمتن كلام وأجله وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة وأبعده عن اللين والركة ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى واستئزال نصرة وتأيدته والاعتصام به في الصبر والاستعانة به على العدو، والرغبة إليه في خذلانهم وزلزلة أقدامهم وجعل الدائرة عليهم من غير التصريح بسؤال وبطلان حركتهم ورجاء تأخرهم وانتظار العرضيات في خلفهم ؛ لما في ذلك من إيهام الضعف عن لقائهم واستشعار الوهن والخوف منهم .<sup>١</sup>

- وإذا كتب التهاني بالفتوح فليس إلا بسط الكلام والإطناب في شكر نعم الله والتبري من الحل والقوة إلا به ، ووصف ما أعطى من النصر وذكر ما منح من الثبات وتعظيم ما يسر من الفتح ، ثم كلما اتسع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفها كما أحسن وأدل على البلاغة وأدعى لسرور المکتوب إليه وأحسن لموقع المنة عنده وأشهى إلى سمعه وأشفى لغليل تشوقه لمعرفة الحال على جليته، ولا بأس بتهويل أمر العدو ووصف جمعه وإقدامه، فإن في تصغير أمره تحقيراً للظفر به .<sup>٢</sup>

- وإن كان المکتوب إليه ملكاً صاحب مملكة منفردة تعين أن يكون البسط أكثر والإطناب أمدّ والتهويل أبلغ والشرح أتمّ .<sup>٣</sup>

(١) حسن التوسل ، ص ٢٣٣

(٢) حسن التوسل ، ص ٣٣٥

(٣) حسن التوسل ، ص ٣٣٥

- وإن اضطر أن يكتب بمثل ذلك إلى ملك غير مسلم لكنه غير محارب فالحكم في ذلك أن يذكر من أسباب المودة ما يقتضي المشاركة في المسار، وأن أمر بر العدو مع كثرتة أخذ بأطراف الأنامل وآل أمره إلى مسائل، ويعظم ذكر ما جرى عليه من القتل والأسر، وتلك عوائد نصر الله لنا وانتقامه ممن عادانا <sup>١</sup>.

- فإن كان المكتوب إليه متهماً بمالأة العدو كتب إليه بما يدل على التقرير والتهكم وإبراز التهديد في معرض الإخبار <sup>٢</sup>.

ويمثل على كل ما تقدم بنماذج مناسبة مؤدية للغرض، ومحققه للفكرة المرادة، وهنا تكمن القيمة الفنية للكتاب تلك التي تربط التنظير بالتطبيق بغض النظر عن الإغراب والابتداع والتوليد وإرهاق القلم بالتزييق واستخدام البديع استخداماً مسرفاً في بعض الأحيان .  
ويتخلل ذلك الرسائل الشواهد فجاء :

١- بصورة كتاب أنشأه إلى مقدم سرية كشف <sup>٣</sup>.

٢- ما كتبه في صدر كتاب سلطاني إلى بعض نواب الثغور عند حركة العدو <sup>٤</sup>.

٣- فصل كتبه في جواب ابن الأحمر صاحب حمراء غرناطة من الأندلس <sup>٥</sup>.

٤- صورة كتاب لبعض ملوك البحر <sup>٦</sup>.

٥- كتاب كتبه إلى متملك سيء متهم بمالأة العدو يتضمن التقرير والتهكم والتهديد <sup>١</sup>.

(١) حسن التوسل ، ص ٣٣٨

(٢) نفسه ، ص ٣٤٠

(٣) حسن التوسل، ص ٣٣١

(٤) نفسه ، ص ٣٣٣

(٥) نفسه ، ص ٣٣٥

(٦) نفسه ، ص ٣٣٨

وتلك كانت المكاتبات الرسمية وهي تحمل معلومات تاريخية ولغة تتعلق بالحروب وأدواتها وكل ما يخصها وقد وشحت تلك الرسائل بالملح الديني .  
وينتقل شهاب الدين بعد ذلك إلى : ما يحسن بسط الكلام فيه ، ويكون الكاتب منه مطلق العنان مخلاً بينه وبين فصاحته موكولاً إلى اطلاعه وبلاغته ما تضمن الأوصاف من الخيل والجوارح والسلاح وآلات الحرب وأنواع الرياضيات من الصيد ورمي البندق ولعب الكرة .<sup>٢</sup>

- فيأتي بكتاب أنشأه في أوصاف الخيل / طويل جدا .<sup>٣</sup>

- وآخر قصير في وصف السيف .<sup>٤</sup>

- وصورة كتاب تضمن ذكر الصيد .<sup>٥</sup>

- وما قاله في صفة حصن .<sup>٦</sup>

- وآخر في وصف جيش .<sup>٧</sup>

- وما ذكره في وصف العدو بالذلة والخور والوهن في قبالة ما يظهره من

الرهج بالحركة وإعداد الأهبة والاحتشاد .<sup>٨</sup>

- وفي وصف الرمي بالنشاب .<sup>٩</sup>

- وآخر ما كتب رسالة أنشأها في البندق <sup>١٠</sup> وجاءت طويلة جدا .

ويأتي بعد ذلك إلى كتابة [ التقاليد والتواقيع والمناشير ] ، ويقول في مطلعها :

---

(١) نفسه ن ص ٣٤٠

(٢) نفسه ، ص ٣٤٣

(٣) نفسه ، ص ٣٤٣ : ٣٤٧

(٤) نفسه ، ص ٣٤٣

(٥) نفسه ، ص ٣٤٧ : ٣٤٩

(٦) نفسه ، ص ٣٤٩

(٧) نفسه ، ص ٣٥٠

(٨) نفسه ، ص ٣٥٠

(٩) نفسه ، ص ٣٥١ وهو نص من خطبة

(١٠) نفسه ، ص ٣٥٣ : ٣٦٧



فأما التقاليد والتواقيع والمناشير وما يتعلق بذلك فالأحسن فيها بسط الكلام وتعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب، ويجب أن تراعى فيها أمور<sup>١</sup>، منها :

أولاً: براعة الاستهلال وفيها: ذكر الرتبة أو الحال أو قدر النعمة

أ- ذكر لقب صاحب التقليد واسمه

ب- ذكر ما يناسب الغرض ويوافق المقصد من

أول الخطبة إلى آخرها

ثانياً: تقسيم الكلام في التقليد على أربعة أقسام متقاربة المقادير :

الربع الأول: خطبة

الربع الثاني: ذكر موقع الإنعام في حق المقلد وذكر الرتبة وتقخير أمرها .

الربع الثالث: ذكر أوصاف المقلد وما يناسبها .

الربع الرابع: الوصايا، وهي القاعدة، ويراعى فيها:

أ- المناسبة وما تقتضيه الحال .

ب- مقدار النعمة والرتبة .

ج- اختيار الكلام والمعاني.

ويمثل على ما تقدم ثلاثة تقاليد طويلة<sup>٢</sup> الأول كتبه لمتملك " سيس "

بإقراره على ما قاطع النهر من بلاده<sup>٣</sup> ، والثاني كتبه لسلامش بمملكة الروم<sup>٤</sup> ،

والثالث كتبه في الفتوة وبطلها سيدنا علي، رضي الله عنه

( ملأ سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا علي )<sup>٥</sup>.

(١) نفسه ، ص ٣٦٨

(٢) حسن التوسل ، ص ٣٧٩ : ٣٨٢

(٣) نفسه ، ص ٣٦٩ : ٣٧٣

(٤) نفسه ، ص ٣٧٣ : ٣٧٨

ثم جاء بالكتب الاخوانية ، فقال : فأما الكتب الإخوانية والكتب التي تعمل رياضةً للخاطر في ما يقل وقوعه لاحتمال أن يقع أو في ما تمتحن به قوة القريحة ويعتبر به تصرف الفطنة ويسبر به نمور الذهن ويعلم به استعداد الفكر، فإن الكاتب في ذلك الأمر مطلق العنان يخلو بينه وبين قوته فيه أو ضعفه، لكن على كل حال يُراعى كل مقام بحسبه<sup>٢</sup> فيأتي بخمسة كتب :

- الأول صورة كتاب إلى إنسان يتضمن مخاطبته في تزويج أمه<sup>٣</sup>.
- والثاني صورة كتاب إلى من هزم جيشه يتضمن إقامة عذره ووصف اجتهاده وبحث على محاورة عدوه والطلب بثأره رياضة للخاطر<sup>٤</sup>.
- والثالث صورة كتاب يتضمن ذم مهزوم وذم جيشه والتفريع لهم والتهكم بهم ونسبتهم إلى الوهن والذلة<sup>٥</sup>.

- والرابع صورة كتاب كتبه على لسان المهزوم تجربة للخاطر يتضمن الاعتذار ووصف الاحتفال بأخذ الثأر<sup>٦</sup>.
  - والخامس صورة كتاب على لسان المولود إلى والده<sup>٧</sup>.
- ويختتم شهاب الدين بقوله : وأما الإخوانيات فصاحبها بحسب اختياره ، جارٍ على جادة اقتراحه<sup>٨</sup>.

(١) نفسه ، ص ٣٧٩ : ٣٨٢

(٢) نفسه ، ص ٣٨٢

(٣) نفسه ، ص ٣٨٣

(٤) نفسه ، ص ٣٨٥

(٥) نفسه ، ص ٣٨٧

(٦) حسن التوسل ، ص ٣٨٩

(٧) نفسه ، ص ٣٩١

(٨) نفسه ، ص ٣٩١

## خامساً : المصادر التي أخذ المؤلف منها مادته

أول ما نلاحظه عند الكلام عن مصادره غير كتاب الله العزيز وكتب الأحاديث النبوية هو اعتماده الكلية على كتب سابقه مع الأخذ والتقل إلى حد كبير ، فهو يأخذ عن الجرجاني والخفاجي وابن المعتز وابن الأثير وقدامه وابن أبي الأصبع المصري وغيرهم .

وغالباً ما يقول : وحكى الإمام عبدالقاهر الجرجاني....<sup>١</sup>، وقال الجرجاني<sup>٢</sup> وقال عبدالقاهر الجرجاني<sup>٣</sup>

وقال أبو محمد بن عبدالله بن سنان الخفاجي : وقد اختار أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي من جملة الاستعارة قول امرئ القيس.....<sup>٤</sup> .

وقال ضياء الدين : وهذا التشبيه المضمّر الأداة قد خلطه قوم بالاستعارة لوم يفرقوا بينهما وذلك خطأ محض، وسأوضح وجه الخطأ فيه<sup>٥</sup> .

وفي معرض حديثه عن الاستطراد، ويقول: ذكر الحاتمي في حلية المحاضرة أنه نقل هذه التسمية عن البحري [الشاعر] وذكر غيره أن البحري نقلها عن أبي تمام وسمّاه ابن المعتز : الخروج من معنى إلى معنى<sup>٦</sup> .

وحين تحدث عن حسن الابتداءات، قال : هذه تسمية ابن المعتز<sup>٧</sup> وفي صحة الأقسام ، قال : وهو أول أبواب قدامه<sup>٨</sup> ، وفي التوشيح قال : قال قدامه:.....<sup>١</sup>، وفي الإيغال قال: .....وفسره قدامه بأنه قال.....<sup>٢</sup> .

(١) نفسه، ص ١٠٢

(٢) نفسه، ص ١٤٢، ١٤١

(٣) نفسه، ص ١٤٤، ص ١٦٢

(٤) نفسه، ص ١٣٨

(٥) نفسه، ص ١٢٧

(٦) نفسه، ص ٢٢٧

(٧) نفسه، ص ٢٥٠

(٨) نفسه، ص ٢٥٦

وفي التباير قال: قال ابن أبي الأصبع....<sup>٣</sup>

وفي الطاعة والعصيان، قال: وأنكر ابن أبي الأصبع أن يكون هذا الشاهد من باب الطاعة والعصيان<sup>٤</sup>، وفي التوشيح والاطراد والتفريع أخذ بأقوال ابن أبي الأصبع<sup>٥</sup> وفي الإبداع جاء بقول موسع لابن أبي الأصبع، هو: وما رأيت في ما استقرت من الكلام كآية استخرجت منها واحدا وعشرين ضرباً من المحاسن، وهي قوله تعالى "وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر، واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين".<sup>٦</sup>

إن ما تقدم كان من باب الأخذ المباشر عن سابقه، وتميز في هذا بالأمانة العلمية إذ أحال الكلام إلى أصحابه ذاك الخاص بمسميات الأقسام البلاغين وتعريفاتها، أما ما جاء في مجال النقل فقد كان حجمه كبيراً وفي الأغلب لم يحل النصوص المنقولة إلى أصحابها، وقد وصلت درجة النقل إلى النقل الحرفي للآراء والشواهد والآيات والشروحات وغالباً ما نقل عن دلائل الإعجاز<sup>٧</sup>، ونقد الشعر<sup>٨</sup>، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر<sup>٩</sup>.  
ومما يجب ذكره أنه كان أكثر تأثيراً بابن الأثير دون غيره من البلاغيين الذين أخذ عنهم<sup>١٠</sup>.

(١) نفسه، ص ٢٥٩  
(٢) نفسه، ص ٢٦١، ص ٢٦٢  
(٣) حسن التوسل، ص ٢٧٠  
(٤) نفسه، ص ٢٧٢  
(٥) نفسه، ص ٢٧٥، ٢٨٤، ٢٩٤  
(٦) نفسه، ص ٣١٤ - هود، الآية ٤٤  
(٧) نفسه، ص ١٤١، ١٤٤، ١٦٢، ١٧٣، وانظر دلائل الإعجاز ن ص ٥٤، ٥٨، ١٨٢، ٢٥١  
(٨) نفسه، ص ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، وانظر نقد الشعر ص ١٣٩، ١٦٩، ١٥٤، ١٥٥  
(٩) نفسه، ص ٢٥٠ وانظر المثل السائر، ج ٢، ص ٢٢٣-٢٤٣ والكتاب في معظمه تكرار للمثل السائر.  
(١٠) نفسه، مقدمة المحقق ص ٢٦

إن شخصية شهاب الدين تختفي في القسم الثاني من كتابة " قسم البلاغة" ، فهو ليس بمبدع ولا مبتكر لأنه لم يقدم شيئاً جديداً في البلاغة حتى في الشواهد التي استشهد بها؛ إذ إن كل الذي فعله انه نقل مادته عن الكتب البلاغية التي مرّ ذكرها<sup>١</sup> .

هذا غير ما ذكره من أسماء كتب متنوعة، جاءت في ثنايا كتابه، وقد أخذ منها ما تمثله من شواهد أيضاً لكنه أحالها بأسمائها إلى أصحابها لمن له رغبة في الإنشاء. مثل الكتب المؤلفة في إعجاز الكتاب العزيز، ككتب الجرجاني، والرماني، والإمام فخر الدين، والسكاكي، والخفاجي وابن الأثير.... وغيرهم<sup>٢</sup> .

كما أخذ من الحماسة<sup>٣</sup> ومن المفضليات ، والأصمعيات، وديوان الهذليين<sup>٤</sup> وأمثال الميداني<sup>٥</sup> ، وطبقات الأدباء<sup>٦</sup> ، وحلية المحاضرة<sup>٧</sup>، وغيرها . واستعان أيضاً بمحفوظة من التراث الديني والتاريخي والأدبي والشعري مستندا في ذلك كله إلى طبيعته وخبرته ومكانته الأخلاقية والدينية والاجتماعية التي كانت كلها معيماً له في تأليف الكتاب وتأكيد أن الإنشاء صناعة.... والصناعة فيه فن من صنعة المبدع .

لقد امتاز الكتاب بتنوع مصادره ، كل حسب حاجته مما أعطى الكتاب شكلاً جديداً ووظيفة جديدة ومعنى جديداً من خلف جيل قادر على صناعة الإنشاء ومتميز بالحس المرهف والتفكير العميق ومستشعرٍ للمعاني بالمداومة والرواية

(١) نفسه، مقدمة المحقق ص ٣٨

(٢) نفسه ، ص ١٠١

(٣) نفسه ن ص ٨٩

(٤) نفسه ، ص ٨٩

(٥) نفسه ، ص ٩٦

(٦) نفسه ، ص ٨٩

(٧) نفسه ، ص ٢٢٧

والطبع الموهوب والتعلم المكسوب ، حتى يهضم المتعلم قواعد الكتابة وخصائصها ثم يتمثلها أدباً خالداً.

## سادساً :- أثر الكتاب في الكتب التي ألفت بعده

فقد أخذ منه النويري في موسوعته نهاية الأرب ، والقلقشندي في كتابة صبح الأعشى واعتمده ابن معصم في كتابة أنوار الربيع في أنواع البديع، ونقل عنه الصفدي، وقد قال: هو أحد الكملة الذين عاصرتهم وأخذت عنهم، ولم أرَ من يصدق عليه اسم الكاتب غيره؛ لأنه كان ناظماً ناثرًا.<sup>١</sup> وأما نثره وشعره فنجدهما في كتب عصره مما يدل على اتساع باعه واستشهار اسمه كما نجدهما في المصادر التي تحدثت عن هذه الحقبة، فالشهاب محمود شارك في أحداث عصره وقال فيها شعراً ونثراً<sup>٢</sup> ، فنقلت آثاره بين طيات النجوم الزاهرة، والدرر الكامنة، وشذرات الذهب، وقوات الوفيات .

ولا غرابة في أن يعتبر شهاب الدين محمود في عصره ( علامة الأدب وعلم البلاغيين )<sup>٣</sup> .

(١) الدرر الكامنة ، ص ٥ : ٩٢

(٢) مقدمة المحقق، حسن التوسل ، ص ٢٢

(٣) شذرات الذهب ، ٦ : ٦٩

## سابعاً : أسلوب العرض ولغة المؤلف

اعتمد شهاب الدين الأسلوب التعليمي إلى حد كبير في عرض الأمور الكلية التي لا بد للمرشح بهذه الصناعة من التصدي للاطلاع عليها، فعند عرضه للمعلومة يفندّها بالمثال، ومن ذلك عند حديثه عن ضرورة حفظ كتاب الله تعالى وإدامة قراءته وملازمة درسه، إن سائلاً قال لبعض العلماء: أين تجد في كتاب الله تعالى قولهم :

( الجار قبل الدار )

قال : في قوله تعالى : " وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين"<sup>١</sup> فطلبت الجار قبل الدار<sup>٢</sup> .

وروي أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال للمغيرة بن شعبة ، لما أشار عليه بتولية معاوية ( وما كنت متخذ المضلين عضداً )<sup>٣</sup> .

ويعلل ضرورة الحفاظ والمداومة عليه بقوله : حتى لا يزال - القرآن الكريم - مصوراً في فكرة ، دائراً على لسانه، ممثلاً في قلبه، ذاكرة له، في كل ما يرد عليه من الوقائع التي تحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلى إقامة الأدلة القاطعة به عليها، وكفى بذلك معنياً في قصده، ومغنياً له عن غيره<sup>٤</sup> ،

ما فرطنا في الكتاب من شيء<sup>٥</sup> .

(١) التحريم ، آية ١١

(٢) حسن التوسل ، ص ٧٢

(٣) حسن التوسل ، ص ٧٣

(٤) نفسه ، ص ٧٢

(٥) الأنعام ، آية ٣٨

وقد تقوم الآية الواحدة المستشهد بها في بلوغ الغرض وتوفيه المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة <sup>١</sup> .

وعرض شهاب الدين لحالات الاستشهاد بالقرآن الكريم جميعها ، مع المثال مبيناً إلى أن يقول : وقد أكثر الناس في الاستشهاد: فمفرط في الحسن، ومفرط فإما تغير شيء من اللفظ بغيره، أو إحالة معنى عما أريد به ، فلا يجوز وينبغي العدول عنه مهما أمكن <sup>٢</sup> ، واتبع ذلك الحديث وأوصى بالاستكثار من حفظه ، لينفق منها عن سعة، ويستشهد بكل شيء في موطنه، ويحتج بمكان الحجة ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه ، ويبني كلامه على أصل لا يرفع ، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يصد عنه ولا يدفع <sup>٣</sup> .

ويأتي بعد ذلك إلى الحل فيقول: الأولى أن يراعي لفظه ما أمكن، وإلا فمعناه مما لا بد منه ويمثل عليه .

كما كان يستهل على من يريد تعلم صناعة الإنشاء بعرض لأسماء كتب ذات العلاقة بالتخصص، فحين أكد قراءة ما يتفق من كتب النحو واللغة ، وقال بضرورة قراءة ما يتهياً من مختصرات اللغة، مثل: " الفصيح" و " كفاية المتحفظ " <sup>٤</sup>

وكذلك الشأن في حفظ أشعار العرب، ومطالعة شروحها، واستكشاف غوامضها، والتوفر على ما اختاره العلماء لها، منها " الحماسة" و " المفضليات" و " الأصمعيات" و " ديوان الهذليين" <sup>٥</sup> .

(١) انظر ، حسن التوسل ، ص ٧٦ لقراءة الشواهد

(٢) نفسه ، ص ٧٨

(٣) نفسه ، ص ٧٨

(٤) نفسه ، ص ٨١

(٥) نفسه ، ص ٨٩



وحين أكد ضرورة حفظ خطب البلغاء من الصحابة وغيرهم ومحاوراتهم ومكاتباتهم، ممثّل بأجمل الأقوال توضيحاً للغرض وجذباً للقارئ أما المتعلم الناشئ ، ومن ذلك ما كتب به معاوية إلى علي - رضي الله عنه - في كتاب :

" أما بعد فإن لكل الخفاء حسدت، وعل كلهم بغيت "

فأجابه : " لم تكن الخباية عليك، حتى تكون المعذرة إليك "¹

وجاء بحوار لطيف أحسن فيه ضرب الشاهد والمثال.... حين قال: وفد على هشام بن عبد الملك وفود العرب يشكون حرب الحجاز فقال أصغرهم سنأ : يا أمير المؤمنين أصابتنا سنون ثلاث إحداها: أذابت الشحم، والثانية: أكلت اللحم، والثالثة: أنفت العظم، وفي أيديكم فضول أموال، فإن كانت لله فأنفقوا من مال الله في عباد الله، وإن كانت لهم ، فردوا فيئهم من مالهم، وإن كانت لكم فتصدقوا عليهم منها، فإن الله يجزي المتصدقين. فقال هشام: لله دره لم يترك لنا في واحدة عذراً² .

كما جاء بحكاية مثل في أكثر من موضع³ وبمعلومات تاريخية قيّمة كلما سنحت الفرصة لذلك فتكلم عن ( يوم السقيفة)⁴، ( يوم ذي قار )⁵، و( وقعة الحرة)⁶ و( يوم الكلاب)⁷، ومثّل على خطب الصحابة بخطبة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - خليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين قال : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب، فإن برّ وعدل فذلك ظني به، وإن

(¹) نفسه ، ص ٨٥

(²) حسن التوسل، ص ٨٦

(³) نفسه ، ص ٩٨

(⁴) نفسه ، ص ٧٨

(⁵) نفسه ، ص ٨٨

(⁶) نفسه، ص ٨٨

(⁷) نفسه ، ص ٣٠٣

جار وبدل فلا علم لي بالغيث. والخير أردت بكم ولكل امرئ ما اكتسب من الإثم<sup>١</sup> ( وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)<sup>٢</sup> .

وما زال في نقطة التعلم تلك وهي حفظ الأشعار فأكد حفظ جانب جيد من شعر المحدثين كأبي تمام ومسلم بن الوليد والبحثري وابن الرومي والمتنبي.....<sup>٣</sup> .

وكذلك النظر في رسائل المتقدمين من غير حفظها - معللاً ذلك - لما في النظر فيها من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطرق والنسج على منوال المجيد<sup>٤</sup> .

وأكد أيضاً النظر في كتب الأمثال الواردة عن العرب نظماً ونثراً كأمثال الميداني، والمفضل بن سلمة الضبي، وحمزة الاصبهاني، وغيرهم وأمثال المحدثين الواردة في أشعارهم كأبي العتاهية ، وأبي تمام ، والمتنبي، وأمثال المولدين<sup>٥</sup> .

ويورد في معرض حديثه عدداً من الأمثال كشاهد على ما يقول، منها :  
(كلابسي ثوب زور)<sup>٦</sup> وهو من الحديث الشريف : ( المتشبع بما لا يملك كلابس ثوبي زور )<sup>٧</sup> ،  
وعند الصباح يحمد القوم السرى) ويبين شهاب الدين معلومة معه، بقوله :  
وأول من قال ذلك - المثل - خالد بن الوليد - رضي الله عنه - قاله في

(١) نفسه ، ص ٧٣

(٢) الشعراء ، آية ٢٢٧

(٣) نفسه ، ص ٩٢

(٤) نفسه ، ص ٩٣

(٥) نفسه ، ص ٩٦

(٦) نفسه ، ص ٩٤ وانظر مجمع الأمثال ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيساوي، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٥٥ ص ٢ : ١٥٠

(٧) نفسه ، ص ٩٤

مفازة

صبح ليلة قطع فيها بأصحابه

كانت في طريقه من العراق إلى الشام<sup>١</sup>

وجاء بمثل آخر، هو : ( ساء سمعاً فأساء إجابة) وبين أيضاً أول من قاله وقصته<sup>٢</sup>

ثم جاء بمثل من أمثال المولدين نلمس منه روح النقد؛ إذ يقول شهاب الدين: أما أمثال المحدثين فحكمها حكم أمثال العرب الشعري وأما أمثال المولدين فلأنه يأتي منها ما يستطرف، يقول الشاعر<sup>٣</sup> :

تأمل منه تحت الصدغ خالاً لتعلم كم خبايا في الزوايا

والحقيقة أن الحس النقدي ملموس في مجمل كتابه في التعليل في التفريق، في بيان الأسباب، في إبداء الرأي، في توضيح صورة، في نقل رأي، في حوار، في قول.... في معظم ثنايا الكتاب نجد روح النقد عند شهاب الدين واضحة.

وأمثلة ذلك كثيرة، ففي معرض حديثه عن ضرورة حفظ شعر المحدثين من أمثال أبي تمام والبحري والمتنبي وغيرهم، قال معللاً:

للطف مأخذهم ودوران الصناعة في كلامهم ، ودقة توليد المعاني في أشعارهم وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة والكتابة وخصوصاً المتنبي الذي كأنه ينطق عن ألسنة الناس في محاوراتهم<sup>٤</sup> . وهذا تعليل بعيد مداه، فما المقصود بتعليق عن المتنبي تحديداً، أكان معروفاً عنده التعبير بلسان الحال، أم الاهتمام

(١) نفسه ، ص ٩٦

(٢) حسن التوسل ، ص ٩٦ ، ٩٧

(٣) نفسه ، ص ١٠٠ ، البيت للأرجاني ، انظر ديوانه ، ص ٤٣٩

(٤) نفسه ، ص ٩٣

بحاجة الملتقى أم الفن رسالة خالدة.... مفاهيم كثيرة تؤكد أن شهاب الدين الحلبي كان هاضماً جيداً للنقد لكنه لا يتقن مهارة تمثله .

لقد تطرق في مجمل كتابه إلى عبارات نقدية عميقة المعاني أحسبها تحتاج إلى نظر فقد جاء بمصطلح ( أزمة المعاني )<sup>١</sup> و ( سلامة الاختراع )<sup>٢</sup>، و ( دقة توليد المعاني )<sup>٣</sup>، و ( الاحتذاء في اختراع المعاني )<sup>٤</sup>، و ( الذوق الفصيح )<sup>٥</sup>، و ( الملكة المطاوعة )<sup>٦</sup>، و ( رونق الطبع السليم )<sup>٧</sup>، و ( الانسجام والقابلية والاستعداد )<sup>٨</sup>.

كما أن له آراء في النقد ، كان يقول : فإنه لا يفهم المقصود إلا من له ذهن يرتفع عن طبقة العامة<sup>٩</sup>، وقوله في موضوع الحل : يكون استعمال ذلك كاستعمال البديع إذا أتى عفواً من غير تكلف<sup>١٠</sup> وشواهد أخرى كثيرة<sup>١١</sup> . هذا غير ما كان له من تعليقات نقدية على الشواهد الشعرية، كأن يقول: هذا أبلغ وأحسن<sup>١٢</sup> ، ومن أبلغ ما في هذا الباب....<sup>١٣</sup> . ومن أحسن ما ابتدأ به

(١) نفسه ، ص ١٠٠

(٢) نفسه ، ص ٢٩٦

(٣) نفسه ، ص ٩٣

(٤) نفسه ، ص ٨٩

(٥) نفسه ، ص ١٠٢

(٦) نفسه ، ص ٣٢٩

(٧) نفسه ، ص ٣٢٩

(٨) نفسه ، ص ٣٣٠

(٩) نفسه ، ص ١٠٨

(١٠) نفسه ، ص ٣٢٩

(١١) نفسه ، ص ٨٠ ، ص ٩٣ ، ١٠٢ ، ١١٣ ، ٢٩٨ ، ٣١٦

(١٢) حسن التوسل ص ١٢٣

(١٣) نفسه ، ص ٢٣٣

١، ومن لطيف ما جاء في هذا النوع<sup>٢</sup>، إن هذه الاستعارة في غاية الحسن<sup>٣</sup>، ومن فساد التشبيه<sup>٤</sup>.

وما يعاب من المبالغة إلا ما خرج من حد الإمكان إلى الاستحالة<sup>٥</sup>، وغير ذلك كثير.

وله أيضاً في التعريف نقد، ففي معرض حديثه عن الإيهام قال: وأمثال ذلك كثيرة وخصوصاً في أشعار المتأخرين. وعند علماء البيان التخیل تصوير حقيقة الشيء للتعظيم<sup>٦</sup>.

وقال في تعريف براعة القطع: هو أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه المترسل أو الخطيب أو الشاعر مستعذباً حسناً لتبقى لذته في الأسماع<sup>٧</sup>. وقال أيضاً وهو يتحدث عن حسن الابتداءات: وأمثلة هذا الباب كثيرة نظماً ونثراً وينبغي أن لا يبتدئ بشيء يتطير منه، ويحسن أن نبتدئ في المديح<sup>٨</sup>.

إن ما تقدم من أسلوب في طرح مادة الكتاب لعله - حقاً - يرفع من شأن الكاتب والكتاب ويحول الكاتب إلى معلم عالم في اللغة الأدب والنقد والبلاغة، هذا غير ما له من باع طويل في الدين والتاريخ والتراث والأماكن والمعلومات العامة بما يوحى به الكتاب. لقد أخذ شهاب الدين بالكتاب من التعميم إلى التفصيل حتى استوفى غرضه وحقق هدفه، فخرج عن كونه كتاب تعليم إلى كتاب تعليم وثقافة في مختلف المجالات.

(١) نفسه، ص ٢٥٢

(٢) نفسه، ص ١٢٤

(٣) نفسه، ص ١٣٨

(٤) نفسه، ص ١٢٥

(٥) نفسه، ص ٢٣٦

(٦) نفسه، ص ٢٥٠

(٧) نفسه، ص ٢٥٥

(٨) نفسه، ص ٢٥١، ٢٥٢، وانظر المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين أبو الفتح نصر الله ابن الأثير الجزري، تحقيق احمد الحوفي، ويدي طيانة، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، النوع الثاني والعشرين في المبادئ، والافتتاحات، ٢، ص ٢٢٣ : ٢٣٠

كما كان من ضمن أسلوبه وطريقة عرضه أن يحدد البداية والنهاية لكل موضوع يريد طرحه، فهذا قوله في أمور المترشح للكتابة: فأول ما يبدأ به من ذلك ، حفظ كتاب الله تعالى....ويتابع ليصل إلى النهاية فيقول: فهذه أمور كلية لا بد للمترشح لهذه الصناعة من التصدي للاطلاع عليها والانكباب على مطالعتها والاستكثار منها ؛ لينفق من تلك المواد، وليسلك في الوصول إلى صناعته تلك المواد، وإلا فليعلم أنه في ولد والكتابة في واد<sup>١</sup>. وكذلك الأمر عند الحديث عن الأمور الخاصة فيبدأ بقوله إنها تزيد معرفتها من قدر لمترشح للكتابة ويزين العلم بها نظمه ونثره، وعرض فيها لمائة نوع بلاغي وزيادة، فكان يبدأ بتعريف النوع ثم يأتي بالشاهد فالمداخلة - إن وجدت - ويتابع ليصل إلى النهاية، فيقول : هذا ما اتفق إيراد في هذا الكتاب من علوم المعاني والبيان والبديع ليتأمله المترشح لهذه الصناعة ويستعمله في كلامه<sup>٢</sup>.

ويأتي في آخر الكتاب بنماذج تطبيقية عن الاقتباس والاستشهاد والحل، ويأتي بنماذج أخرى من الرسائل والتواقيع والمناشير، ثم ينهي بخمسة كتب اخوانية متنوعة ، ومن أجمل ما طلبه من الكاتب عند كتابة الرسائل هو :

- إعطاء كل مقام حقه<sup>٣</sup>.
- القصد من غير تطويل ولا بسط يضيع المقصد وبفصل الكلام بعضه عن بعض<sup>٤</sup>.
- إبراز امتن الكلام وأقربه من القوة مع المبالغة في وصف الإنابة إلى الله تعالى/ إذا كتب عن الملك في أوقات الحروب<sup>٥</sup>.

(١) نفسه، ص ٧٢: ١٠٠

(٢) نفسه، ص ١٠٠: ٣٢٠

(٣) حسن التوسل، ص ٣٣٠

(٤) نفسه، ص ٣٣١

(٥) نفسه، ص ٣٣٢

- اتساع مجال الكلام والإطناب في شكر نعم الله/ في حالة النصر .
- استخدام التقرير والتهم وإيراز التهديد في معرض الإخبار/ في حالة المكتوب إليه متهما بمالأة العدو .

- ثم كتب رسائل أيضا في وصف الخيل ، والسيف ، والسعيد ، والحسن، والجيش ، والرمي بالنشاب والبندق

لقد كان الكتاب الذي أنشأه في وصف الخيل من أجمل الرسائل، وقد بدأه مطبقاً الاستشهاد بقوله: من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، ويقدم لسبعة أنواع من الخيل، ويعطي كل منها صفة اتسم بها وتحلت بتلك الفنون البلاغية التي عرضها من غير أن يكون في ذلك كلفة أو تكليف .

فبدأ بالأشهب / فمن أشهب غطاه النهار بحلته وأوطأه الليل على أهله....، إن التفت المضايق انساب انسياب الأيم وإن انفرجت المسالك قرّ مرور الغيم،.... لا يستن داحس في مضماره ولا تطمع الغبراء في شق غباره ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره تسابق يده مرامي طرقه ويدرك شوارد البروق ثانياً من عطفه .

وهذا الأدهم/ ومن أدهم حالك الأديم حالي الشكيم....، قد ألبسه الليل بُرده، وأطلع من عينيه سعه....، لين الانعطاف سريع الانعطاف يُقبل كالليل ويمر كجلمود صخر حطه السيل يكاد يسبق ظله ومتى جارى السهم إلى غرض بلغه قبله .

وهذه الكميت / ومن كميت فهد كأن راكبه في مهد،.....وكان نغم الفريض ومعبد في لهواته قصير المطا فسيح الخطا إن ركب لصيد قيّد الأوابد، وأعجل عن الوثوب الوحش اللوابد وإن جنب إلى حرب لم يزور من وقع القنا بلبانه ولم يشك لو علم الكلام بلسانه ولم ير دون بلوغ الغاية وهي غرض راكله ثانيا من عنانه، وإن سار في سهل اختال براكبه كالتمل، وإن

أصعد في جبل طار في عقابه كالعقاب وانحط من مخارمه كالوعل، متى ما ترقى العين فيه تسهل ومتى أراد البرق مجاراته قال له الوقوف عند قدره ما أنت هناك فتمهل .

وهذا الحبشي/ ومن حبشي أصفر يروق العين ويشوق القلب بمشابهته العين كأن الشمس ألقت عليه أشعتها جلال وكأنه نفر من الدجى فاعتنق منه عرفاً واعتلق أحجالاً، له من البرق خفة وطئه وخطفه ومن النسيم لين طروقه ولطفه .

وهذا الأخضر/ ومن أخضر خطاه من الروض تفويفه ومن الوشي تقسيمه وتأليفه يعطيك أفانين الجري قبل سؤاله ولما لم يسابقه شيء من الخيل أغراه حب الظفر بمسابقة خياله....، يختال لمشاركة اسم الجري بينه وبين الماء في السير كالليل ويدل بسبقه على المعنى المشترك بين البروق اللوامع وبين البرقية من الخيل .

وهذا الأبلق/ ومن أبلق ظهره جرم وجريه ضرم ، إن قصد غايةً فوجود الفضاء بينه وبينها عدم، وإن صُرف في حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان، وفعله ما تريد الكف والقدم....، لا تكل مناكبه ولا يضل في حجرات الجيوش راكبه....، لا يجاريه الخيال فضلاً عن الخيل ولا يَمَل السُرى إلا إذا ملّه.....، فهو الأبلق الفرج والجواد الذي لمجاريه العكس وله الطرد. وقد أغنته شهرة نوعه في حبسه عن الأوصاف وعدل بالرياح عن مباراته سلوكها في الاعتراف له جادة الإنصاف.

والملاحظ في هذه الرسالة غير استشهاده بالحديث الشريف وتضمينه لبنى امرئ القيس: كجلمود صخر حطه السيل، هو البراعة في اختيار الألفاظ



المؤدية للمعاني بذاتها؛ إذ لا يصلح غيرها لها، فهي تجعل الوصف وكأنه موقف مشاهد، فهذا الأشهب : لا يستن داحس في مضماره ولا تطمع الغبراء في شق غباره ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره تسابق يداه مرامي طرفه ويدرك شوارد البروق ثانيا من عطفه .

أي براعة في التصوير، لقد صور شهاب الدين الحركة مستقصياً تاريخ داحس والغبراء موحياً بذلك للقارئ بتميز الأشهب الذي لا يسبقه أو حتى إلى مرامي أطرافه أحد، فزاد بدقته في اختيار ألفاظه التصوير الفني قوة .  
وحين وصف الأدهم قال : لئن الأعطاف سريع الانعطاف يُقبل كالليل ويمر كجلمود صخر حطه السيل يكاد يسبق ظله ومتى جاري السهم إلى غرض بلغه قبله.

وهذا موقف مشاهد آخر، يثبت قدرة شهاب الدين على الإبداع في التصوير حتى مثله بلحظة، لوناً وحركةً ووصفاً، وكأنه كان أسرع من الخيل التي وصفها حين التقط الصورة وجعلها لحظة .

وأما وصفه للأشقر الذي: وشاه البرق بلهبه وغشاه الأصيل بذهبه.....، له من الراح لونها ومن الرياح لينها، إن جرى فبرق خفق وإن أسرج فهلال على شفق، يركض ما وجد أرضاً وإذا اعترض به راكبه بحراً وثبه عرضاً .  
وهذا وصف لخيّل آخر يقارب فيه سابقه سرعةً ، لكن شهاب الدين هنا تميّز، وميّز الأشقر بمعالم أكثر وضوحاً مما نرى في الطبيعة، الأمر الذي أغنى المشهد فنقله من فن الكتابة إلى فن المشاهدة .

وأما الكميت، خيل الحروب: قصير المطا فسيح الخطا إن ركب الصيد قيّد الأوباد، وأعجل عن الوثوب الوحش اللّوابد، وإن جنب إلى حرب يزور من وقع القنا بلبانه ولم يشك لو علم الكلام بلسانه ولم ير دون بلوغ الغاية

وهي غرض راكبه ثانيا من عنانه متى ما ترقى العين فيه تسهل ومتى أراد البرق مجاراته قال له الوقوف عند قدره ما أنت هنالك فتمهل .

هذا هو شهاب الدين ، قدّم لوحة مكملّة الحجوم والأشكال والألوان والمواقف بتعبير أمين عن الموصوف مبنى ومعنى، فأعطى الكلمات دلالتها بما يتناسب والكميت .

وحين وصف الحبشي الأصفر قال: له من البرق خفة وطئه وخطفه ومن النسيم لين طروقه ولطفه ومن الريح هزيزها إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه. وهذا خيل أصيل من تلك الخيول ، جاء وصفه مختصراً والأ بتضمينه الذي أضغى ظلالاً أسهمت في فهم المعنى المراد .

وأما الأخضر صاحب النصيب الأكبر من الوصف قال عنه:

ومن أخضر خطاه من الروض تفويفه ومن الوشي تقسيمه وتأليفه.... اجتمع فيه من السواد والبياض ضدّان لما استجمعا حسنا ومنحه البازي حلّه وشيه ونحلته الرياح ونسماتها قوة ركضه وخفة مشيه، يعطيك أفانين الجري قبل سؤاله ولمّا لم يسابقه شيء من الخيل أغراه حب الظفر بمسابقته خياله يختال لمشاركة اسم الجري بينه وبين الماء في السير .

هذا خيل شكله أنيق ولونه زاهٍ، وصفت خفته وسرعة بدالاته ألفاظه التي أعملت الخيال في تصوّره، ومع أنها كلمات عادية وشحّت بالبديع إلا أنها تؤكد قدرة شهاب الدين على التفاوت في التعبير، حتى بدا متميزاً بالجمال والمثال والخيال والإلهام .

وآخر الخيول الأبلق ، ظهره جرم وجريه حزم ، إن قصد غايةً فوجود الفضاء بينه وبينها عدم ، وإن صُرف في حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان ، ... لا تكل مناكبه ولا يضل في حجرات الجيوش راكبة ، ولا يجاريه الخيال فضلاً عن الخيل ، ولا تمل السرى إلا إذا ملّه مشبهاه النهار والليل ، ولا تتمسك البروق اللوامع لحقه بسوى الأثر ، فإن جهدت فبالذيل فهو الأبلق الفرد والجواد الذي لمجاريه العكس وله الطرد.

وقد أغنته شهرة نوعه في جنسه عن الأوصاف وعدل بالرياح عن مباراته سلوكها في الاعتراف .

ختم شهاب الدين بالأبلق ، فجاء بالطرائف من الوصف مثل الخيال والخيّل ، والنهار والليل ، الجواد والطرد.... فوقع الجرس الموسيقي - كما الحال في جُلِّ رسالته - الذي يؤثر في القارئ / المتلقي فيشعر بعمق المعنى وعفوية اللفظ .

ويختم رسالته بقوله: فلو أنه زيد الخيل لما زاد ورأى من آدابها ما دلّ على أنها من أكرم الأصائل وعلم أنها ليومي سلمه وحربه جنة الصائد وجنة الصايل وقابل إحسان مهديها بثنائيه ودعائه وأعدّها في الجهاد لمقارعة أعداء الله وأعدائه والله تعالى يشكر برّه الذي أفردّه في الندى بمذاهبه وجعل الصافنات الجياد من بعض مواهبه.<sup>١</sup>

ومن أجمل ما كتب أيضاً جزءاً من رسالة في وصف كاتب، يقول فيه وهذا فلان قد آتاه الله في بلاغته الحكمة وفصل الخطاب ومكّنه من أزمة جياد المعاني فهي " تجري بأمره رخاء حيث أصاب "٢، ومنحه فضيلتي العلم

(١) حسن التوكل، ص ٣٤٧

(٢) سورة ص ، آية ٣٦

والعمل فإذا كتب " أخذت الأرض زخرفها وأزَيَّنت"<sup>١</sup> وإذا قال : " قال الذي عنده علم الكتاب"<sup>٢</sup>

لم يقدم شهاب الدين في وصفه خصائص الكاتب الذي هو من أصحاب المهن أو الطبقات، إنما قدم وصفاً تطور فيه وتبدل حال الكاتب، بأن أخرجه متفوقاً حتى على نفسه ، فهو في حكمه بليغٌ وينهى القول بفصل الخطاب وفي كتابته متمرس في المعاني المبتدعة ومتجاوز عن معاني الجدة والتلميح .

فإذا كتب أخذت الأرض زخرفها وأزَيَّنت، وإذا قال ، قال الذي عنده علم الكتاب. وأظنه فيما وصف..... قد وصف نفسه شهاب الدين فأبي قدرة على امتلاك رقاب المعاني، وأي تباين دقيق في اختيار الشواهد بأنواعها، لقد تميز شهاب الدين في نماذجه التطبيقية بالعمق والشمول والسمو .

وكما أورده - كنموذج آخر - من الكتب الإخوانية صورة كتاب إلى إنسان يتضمن مخاطبته في ترويح أمه؛ إذ يقول: هذه المكاتبة إلى فلان جعله الله ممن يؤثر دينه على الهوى وينوي بأفعاله الوقوف مع أحكام الله وإنما لا مريء ما نوى، وإذا كانت المرأة عورة فإن كمال صونها في ما جعل الله فيه سترها وصلاح حالها في ما أصلح الله به في الحياة أمرها وإذا كان النساء شقائق الرجال في باطن أمر البشرية وظاهره وكان الأولى تعجيل أسباب العصمة فلا فرق بين أول وقت الاحتياج إلى ذلك وآخره، وما جدع الحلال أنف الغيرة إلا ليزول شمم الحمية وتنزل على حكم الله فما شرع لعباده النفوس الأدبية، ويعلم أن الفضل في الانقياد لأمر الله لا في إتباع الهوى الوليَّة، ولما كان بر الوالدة أتمَّ وحققها أعمَّ والنظر في صلاح حالها أهمَّ ، تعينت الإجابة

(١) سورة يونس ، آية : ٢٤

(٢) سورة النمل ، آية : ٤٠

حسن التوسل ، ص ٣٥٣

إلى ما يصلح به حالها ويسكن إليه بالها ويتوفر به مالها ويُغمر به قبأؤها ويحصل به عن تقلد استغناؤها وتحمل به كلفة خد مها عنها، وتدفع به ضرورات لا بدّ لزوات الحجاب والحجال منها، ويصفو به ستر الأحصان والحصانة عليها....، وأنا أتوقع من المولى الجواب بما يجمع شمل التقى، ويعلم به أنه تخير من البر أفضل ما ينتقي ويتحقق بفعله أن مثله لا يهمل واجباً ولأمر ما قال الأحنف وقد وصف بالأناة " لكنى أتعجل ألا أرد كفوا خاطباً"<sup>١</sup> . إنه نموذج آخر من إنشاءات شهاب الدين، جديد النمط كتاب من الكتب الإخوانية جاء بأسلوب أدبي نثري، فيه الاستشهاد والتضمين والشرع والدين، والعظة والتاريخ، والمعرفة وما جاء في الأثر، والأدب والبلاغة في جميع علومها.

لقد كتب كتاباً شاملاً قدم فيه إبداعاً فنياً عالي الأداء، يطل فيه على الجوانب الإنسانية عامة دون أعمال ذهن أو إرهاب قلم في تحرّي البديع، لقد ترك شهاب الدين نفسه على سجيته فتفنن في استخدام البديع وجاء بنص طريف يؤكد في مضمونه ضرورة عناية الولد بوالدته ومراعاة احتياجاتها، فلما كان بر الوالدة أتمّ وحققها أعمّ والنظر في صلاح حالها أهمّ تعينت الإجابة إلى ما يصلح به حالها ويسكن إليه بالها، ولا يكون ذلك إلا بتزويجها. فجاء هذا المضمون خالفاً للتفاعل بينه وبين القارئ/ المتلقى؛ إذ يُشعر قارئ الكتاب بصدى كبير في نفسه يحمل معه كطاقة وحيوية وجدوى، والأمر في تقبل مضمونه يعود إلى المرء نفسه إن كان قابلاً للتطبيق أو حتى منطقياً.... المهم أن الذي بين أيدينا وإن كان عرضة للنقاش إلا أنه من حيث صناعة الإنشاء وفنية الكتابة حول الزخارف البديعية إلى كتب إخوانية تحمل دلالات دينية

واجتماعية وثقافية اختزلت ببديعها المسافة الواسعة بينها وبين جمال النص المتهم بالتصنع أو التصنيع .

وخلاصة القول ، لقد كان أسلوب شهاب الدين في كتابه أسلوباً تعليمياً، ينص على القواعد والأسس، ويعرض للفنون البلاغية جميعها بالشاهد والمثل ويأتي بالنماذج التطبيقية على تقدم، وفي أثناء ذلك كان عرضه جميلاً ومتنوعاً، فقد تضمن الكتاب الكثير من العلوم والمعارف والشعر والنثر والبلاغة والنقد والتاريخ والجغرافيا والدين وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد، والأمثال والأخبار وغير ذلك....، وأحياناً يلجأ إلى الأسلوب الأدبي في الشرح والتوضيح وقد كتب شهاب الدين كتابه بلغة سهلة، مرنة إلا القلة القليلة الخاصة بالرسائل والكتب الاخوانية فإنها تحتاج إلى مزيد من الجهد في فهم مضامينها حسب مناسباتها. لكن الكتاب في مجمله له جوه الخاص؛ إذ يمتع القارئ القارئ والمتعلم لصناعة الإنشاء، إننا نجد في الكتاب لغةً تحمل فكر صاحبها وبناءً يتساند المضمون والشكل فيه، ومظاهر فنية مغرية من فنون بديعية وأشعار وأخبار وقصص وحكايات وأمثال طريفة، إن لغة الكاتب لم تكن أبداً عائقاً في تفهم الهدف من تأليف الكتاب، بل كانت تعبيرات شهاب الدين شديدة الصلة باللغة الدارجة والنمط الدارج في التأليف .

والحقيقة إن كان لا بد من كلمة أو رأي في حق الكاتب أو الكتاب فليس أقل من الموهبة والنبوغ في طريقة الطرح والتناول، لقد امتلك شهاب الدين ملكة التنويع الواضحة في طرح شواهد واختيارها وملكه النقد في تعليقاته ومداخلاته وآرائه وملكة البناء التدريجي والعلمي للكتاب.... ولعل من

الإنصاف أن نقول إنها الغريزة الفنية القادرة على التكيف مع موضوعها ومتجاوزة عصرها بالجديد .

وعليه ، أجدني لست على سواء مع رأي أكرم عثمان يوسف المحقق الذي قال: عن الكتاب: إن الذوق العام هو ذوق التصنع وكأنما انعدمت ملكة الإبداع والابتكار، وتعطلت الأذهان عن الخلق والتجديد، فإن من يقرأ رسائله يحس بروح التصنع والتكلف ويشعر بجمود الحركة الثقافية وتوقفها عند هذا الأسلوب<sup>١</sup> .

### ثامناً :قيمة وأهمية الكتاب

إن السمات العامة للكتاب أظهر دليل على جودته، وإن لم يحظ بالتنوع والتجديد عن كتب سابقه. إلا أن فيه قدرات عالية الأداء وإمكانات متعددة برزت من صاحبه، ولعل أبرزها عرض مادة الكتاب بأسلوب سهل، وشواهد مختارة بحرص وعناية تترجم المطلوب، لغة خلّاقة تميزت بالعمق والسعة والتنوّع.

والكتاب أكثر من كونه كتاب بلاغه يضم علوم المعاني والبيان والبديع لقد اشتمل على جوانب علمية ومعرفته وثقافية مشتركة، كتب التراث القيمة المثمرة ، التي ينبغي أن تدرس رسائلها بالتفصيل من حيث الموضوع والمعالجة والأسلوب دراسة نقدية دقيقة وملاحظة إن طرأ عليها تغير وتجدد حقيقتين عن غيرها من الرسائل .

وبالرغم مما اتسم به الكتاب من وشي الصنعة وزخرف القول فإنه كان مقبولاً فلم ينعكس على القارئ في الإحساس به وفهم بل تذوق حلاوته ولمس

(١) مقدمة المحقق ، حسن التوصل ، ص ٣٥

سلسلة رونقه، فقد جاءت الصيغة عنده شأنها شأن غيره في تلك الفترة الزمنية، فعلم ننقل على شهاب الدين ونرمي الكتاب بالجفاف والضعف لتعاطيه وشي الصنعة وزخرفها، وللمرة الثانية أجدني لست على سواء مع أكرم عثمان يوسف في رأيه حول شهاب الدين وكتابته إذ يقول: إن شهاب الدين لم يقدم شيئاً جديداً وإنما انحصر عمله في الجمع والأخذ عن غيره. لذا فإننا لا نجد عنصر الإبداع والابتكار فيما قدم من مادة بلاغية في كتابه حسن التوسل<sup>١</sup>، لكن زغلول سلام بيّن قيمة الكتاب حين قال: وله كتاب في صناعة الإنشاء مشهور<sup>٢</sup> هو "حسن التوسل إلى صناعة الترسل"<sup>٣</sup>.

وهذا الصفدي يقول: ولم أرَ من يصدق عليه اسم الكاتب غيره؛ لأنه كان ناظماً ناثراً وله كتاب حسن التوسل إلى صناعة الترسل، جوّد<sup>٤</sup>. وهذا طريف داوود يقول في أثناء حديثه عن الحضارة التعليمية والثقافية وعن أشهر العلماء في حلب، ومنهم: محمود بن فهد الحلبي له نظم ونثر في ثلاثة مجلدات، وله معرفة في الخطوط إضافة إلى الأدب والعلم والرواية، ومن مؤلفاته حسن التوسل في صناعة الترسل في الإنشاء<sup>٥</sup>.

إن قيمة الكتاب تكمن في الجانب التاريخي والسياسي الذي قدمته النماذج التطبيقية من رسائل وتقاليد وكتب إخوانية، فهي تُعد وثائق مهمة عن دولة المماليك؛ لما فيها من عرض لأسماء القادة والجيوش والحروب والأدوات والمحاورات والخطابات والمجرحات من فلاح ونصر.

(١) مقدمة المحقق، حسن التوسل، ص ٢٦

(٢) الأدب في العصر المملوكي، ص ٧٩

(٣) - الدرر الكامنة، ٥: ٩٢

- تاريخ الأدب العربي، ٣: ٧٣٦

(٤) حلب في العصر المملوكي الأول، ص ٢٣٦



كما أن الجانب الاجتماعي نتلمسه من تلك النماذج التي دلت على عادات وتقاليد الشعوب في وقت الزواج ووقت ولادة مولود ووقت التهنة بفرح أو نصر، ونفهم من خلالها طريقة تفكيرهم ومصطلحاتهم واللغة المتبعة الدارجة عندهم .

هذا غير ما يحتويه الكتاب من قيمة أدبية عالية، فقد ضم أنواع علوم البلاغة المعروفة جميعها وزاد عليها، ومثل بشواهد لأغلب الشعراء وبأشعار متنوعة العصور، غير ما استشهد به من آيات كريمة وأحاديث شريفة صقلت المعلومة وثمنت الكتاب ووضحت المفهوم. وما تخلل ذلك من معارف عامة، وأحكام شرعية، وأمثال وأخبار، وحكم وقصص وعبر وتاريخ وتراث وعلوم متنوعة أخرى، إن كتاب حسن التوسل كتاب علم وثقافة، تميز بالإبداع والفن والعلم والذوق والموسيقى. وقد وفق كاتبه بأن يولد لدى القارئ أو المتعلم شعوراً بلذة العلم والاقتباس .

إنه مخرج من مخرجات الواقع المعاش وتصوير حقيقي لتاريخ تلك الحقبة، إلا أن من الموضوعية التأكيد على أن النقص من صفات البشر، وعليه فإن الكتاب لا يخلو من المآخذ ، منها: أنه لم يقسم الكتاب تقسيماً منهجياً واضحاً يستهل على القارئ طريقة تناوله والإفادة منه ما أمكن. على الرغم من اتباع شهاب الدين في طريقة التأليف ضياء الدين في المثل السائر، واتباعه في ذلك شهاب الدين محمود رحمه الله في كتابه حسن التوسل<sup>١</sup>. إلا أن ضياء الدين اعتمد في كتابه الجزء فالنوع فالموضوع .

(١) صبح الأعشى، أبو العباس أحمد علي القلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١: ١٤٦

كما أنه كان يقطع جزءاً من كتاب كتبه في مناسبة ما.... لشخص ما.... من غير تحديد البداية والنهاية الخاصة بهذا الكتاب أو هذه الرسالة فيفوت على القارئ والمتعلم ما أرادته من فائدة. هذا غير قلة الشواهد على التواقيع والكتب الإخوانية .

ولعل من الإنصاف القول بأن في الكتاب روحاً جديدة كل الجدة تسعى إلى البساطة والتسهيل بكل ما أوتيت من قوة حتى وإن كان اعتمادها الأكبر على البديع .

## نتائج

من خلال هذه القراءة في نتائج من نماذج التأليف في العصر المملوكي - وهو كتاب (حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل)، لشهاب الدين الحلبي - يمكن استخلاص النتائج الآتية:

- ١- التقسيم الزمني للعصور الأدبية كان جناية على العصرين الأيوبي والمملوكي وبخاصة المملوكي حتى حكم عليه بالتأخير والظلمة والانحطاط ، إلا أن البحث فيه ومعرفة ذخائره ومدخراته من التراث قد تسهم في التقليل من امتداد الفرصة له بإنصافه وإنصاف المبدعين فيه ، كما الحال في إطلاق الأحكام عامة حول كتاب ( حسن التوسل إلى صناعة الترسل) بينما بعد الدراسة والبحث يمكن إنصافه .
- ٢- سيادة روح العصر هي القول الفصل في الحكم على النتاج الأدبي ، مع أن التقيّيش في ذخائر تراث أي عصر من العصور سيبرز التباين، كما الحال في كتاب ( حسن التوسل إلى صناعة الترسّل) الذي قدّم فيه شهاب الدين نماذج تطبيقية ورسائل وكتب أدبية تعدّ خلقاً في صورها، وأفكارها وبيانها، وهي بهذا قد تتكافأ مع نظائرها وروح عصرها من حيث استخدام البديع، لكنها - في الحقيقة - أكثر تأثيراً في التعبيرات، فجاءت بروية جديدة اتسمت بسمو اللغة فكانت مجال تأثير وتأثر.

- ٣- بناء الكتاب بناءاً تدريجياً عفويّاً من العموم إلى الخصوص إلى التطبيق دون التتويه إلى تقسيمه ثلاثة أقسام أو أجزاء أو أبواب لعدم التكافؤ بين التقسيمات في الكم والنوع.

- ٤- إمكانية اعتماد الكتاب المدروس من كتب الاختصاص الأولى في قواعد وأسس وأصول الكتابة عند مراسلات الملوك والأمور الخاصة والمهمة في الحروب وأوصافها.
- ٥- تنوع مادة الكتاب تجعله كتاب علم وثقافة وتتفي التهمة عنه بالضعف والجمود ، له قيمة عظيمة ولكاتبه التقدير .
- ٦- اهتمام النقد العربي بدراسة قضايا الشعر دون النثر ، وهو انحياز واضح وظلّ سائداً حتى اللحظة فيه ظلم للنثر العربي، الذي لم يحظ بذاك الاهتمام على الرغم مما فيه من قفزات نوعية - كرسائل ضياء الدين وشهاب الدين وغيرها- لعلها أهم مما حدث في الشعر، وهي بحاجة إلى مزيد من الدراسة والإنصاف .
- ٧- ضرورة دراسة نتاج العصر المملوكي عامة .

## المصادر والمراجع

## \* القرآن الكريم

- (١) ابن الأثير ضياء الدين أبو الفتح نصر الله الجزري، تحقيق احمد الحوفي وبدوي طبانه، مطبعة نهضة مصر، القاهرة .
- (٢) البغدادي، أبو الفرج عبدا لرحمن بن شهاب الدين، ذيل طبقات الحنابلة، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة .
- (٣) الحلبي، شهاب الدين محمود، حسن التوصل إلى صناعة الترسيل (١٩٨٠)، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، بغداد.
- (٤) الحنبلي، ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- (٥) الداوود، جورج فريد طريف، حلب في العصر المملوكي الأول ٦٥٨هـ - ٧٨٣هـ ، (٢٠٠٨) ، مطبعة السفير ، عمان .
- (٦) الدمشقي ، عماد الدين إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، مصر.
- (٧) سلام، محمد زغلول، الأدب العصر المملوكي (١٩٩٤)، دار المعارف، القاهرة.
- (٨) الصقلاني، شهاب الدين أحمد بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، دار الكتب المصرية الحديثة ، مصر .
- (٩) فروخ ، عمر، تاريخ الأدب العربي (١٩٨١)، دار العلم للملايين، بيروت .

- ١٠ (القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة .
- ١١ (الكتبي، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات، مطبعة السعادة، مصر .
- ١٢ (كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين (١٩٩٣) ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت .
- ١٣ (الميداني، أبو الفضل احمد بن محمد بن احمد بن إبراهيم النيسابوري، مجمع المثل (١٩٩٥) ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة.